

كيف نجدد أفكارنا؟



الجمعة 29 نوفمبر 2024 01:00 م

الفكر هو المدخل الصحيح للتغيير والإصلاح؛ لأن حركة الإنسان تأتي تاليئة لما يقتنع به ويفكر فيه، والصورة المثلى هي أن تكون الجوارح مُنقادةً للعقل، الذي هو أداة الفكر والفهم والوعي، فبعد الوعي يكون السعي، وعلى قدر استقامة الفكر والوعي، تكون صحة الحركة وفعاليتها، ولذا، كان أول ما تنزل من القرآن الكريم {أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، قبل الحديث عن الواجبات والمنهيات وبوّب البخاري في صحيحه: (باب العلم قبل القول والعمل).

وأما التجديد فيمكن أن نقول عنه بشيء من العموم إنه نُفُصُّ للغبار عما لحق بالمفاهيم والتصورات، لتستعيد صحتها وسلامتها، وعمّا لحق بالخطط والبرامج وكلّ ما يقوم به الإنسان، ليستعيد فاعليته وإنتاجيته بحيث يكون ما يعتقد المرء وما يقوم به موافقًا للواجب ومحققًا للمطلوب بكفاءة.

ولا شك أن تجديد الفكر هو أحد الأسئلة الكبرى التي يلح عليها واقعنا المتداخل، وتستدعيها مشكلاتنا المتراكمة، ولا مفر من الاشتباك معها والتماسّ مع إجاباتها.

ولهذا أعتقد أن سؤال "لماذا نجدد أفكارنا؟" لسنا بحاجة للتفصيل في الإجابة عنه؛ لأن ما نعانيه من مشكلات وتراكمات، على المستويات المتعددة، قد وفرّ علينا غناء الخوض في هذه الإجابة، لإثبات ضرورة التجديد ولزومه، وبالتالي: أصبحنا مباشرة أمام السؤال الذي يعقبه، وهو "كيف نجدد أفكارنا؟"

وأعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال المهم، تكون من خلال ثلاث خطوات أساسية، وهي:

1- إدراك تغير الواقع

أي أن ندرك أن واقعنا قد تغير جذريًا عما عهده أسلافنا، في المجالات كافة؛ تكنولوجيًا وفكريًا واقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا، وصرنا أمام مشكلات لم تعرفها الأمم التي قبلنا، وأمام واقع جديد لم تشهد البشرية مثله، ومن ثم؛ فأى قياس لهذا الواقع الجديد على ما سبقه هو قياس يفتقد المعيار الصحيح، ولن يؤدي إلى تصور دقيق.

هذا الواقع الجديد وهذه المشكلات المستحدثة، لاشك أنهما يستلزمان حلولاً تناسبهما، وتصوراتٍ تتماشى معهما، ومن الخطأ البين أن يحسب البعض أن الزمان توقف عند عهد بعينه من الماضي، أو ينظر إلى أحوال الناس ووقائعهم كأنها لم يصبها من التغيير والتبديل!

أما من يحاول إصلاح الواقع وهو يعتقد أنه لم يتغير ولم يتبدل، فلن يأتي إصلاحه وفق الواجب والمطلوب!

2- الانتباه إلى تفاوت النصوص وتناهي الأحكام

أي أن ننتبه بوعي إلى تفاوت درجات النصوص فيما بينها، وإلى تناهي ما يترتب عليها من أحكام: أي محدودية هذه الأحكام فالأحكام الشرعية لم تَجئ كلها على درجة واحدة من: قطعية الثبوت والدلالة، بل منها ما هو قطعي الثبوت والدلالة، وما هو ظني الثبوت وقطعي الدلالة، وما هو ظني الثبوت والدلالة معًا، بل لم تستوعب الأحكام المستخرجة من هذه النصوص - على درجاتها المتنوعة هذه - كلّ الوقائع المستحدثة، لأنه النصوص متناهية، أي محدودة، والوقائع غير متناهية أي متجددة، ومن هنا، جاءت مشروعية الاجتهاد وضرورته، وكان لسؤال تجديد الفكر أهميته وإلحاحه.

يقول الإمام السيوطي: "نعلم قطعًا وبقينًا أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم أيضًا أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصوّر ذلك أيضًا والنصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهي لا يضبطه ما يتناهي؛ عُلم قطعًا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار؛ حتى يكون بصدد كلّ حادثة اجتهادًا" (1).

وبالتالي، فعلى أن ندرك ما هو ثابت مما هو متغير، وما يجوز بل يجب استصحابه مع الواقع الجديد، وما لا يجوز، وما يقع فيه الاجتهاد وما لا يقع، وإلا جمدنا حيث يجب أن نتحرك، أو تحركنا حيث يجب أن نقف!

إن ما نراه - للأسف - من خلط بين الثوابت والمتغيرات، أو بين مواطن الاتباع ومواقع الاجتهاد؛ هو ما يحدث الانحراف يمينًا أو يسارًا، إفراطًا أو تفريطًا، جمودًا أو انفلاتًا، غربة عن الزمان (نحو قرون مضت) أو غربة عن المكان (نحو استيراد نماذج من خارج بيئتنا).. وكلا الأمرين غير

مقبول.

المقبول هو أن نتصالح مع واقعنا بمثل ما نحترم ماضيها، وأن نجدد أفكارنا فيما يقبل التجديد بمثل ما نحافظ فيما تجب المحافظة عليه، سواء بسواء.

3- معرفة الواقع وترتيب أولوياته

أي أن نعرف واقعنا بدقة، ومشكلاتنا بعمق، ومستجداتنا بوعيٍّ وأُن نعلم أن الغربة عن الواقع أو تحاشي التفاعل معه- بدعوى ما يعتلى به من سوءات- لن تُنتج فهُمًا صحيحًا له، ولا تصويًا دقيقًا لمشكلاته فالحكم على الشيء فرغٌ عن تصوُّره فأي حكم صحيح يمكن أن يُنتج عن تصور غير دقيق؟!

إن البعض- ويا للعجب- مازال يحسب الحياة جاريةً على بساطتها في الزمان الأول، ويمكن إصلاحها بكلمة هنا أو خطبة هناك، أو حتى بضربة عصا كما كانت دُرّة عمر تفعل فعلها المبارك!

أمام هذا التصور الساذج عن الحياة، تأتي وسائل التغيير والإصلاح أكثر إغراقًا في السذاجة، وأبعد ما تكون عن الفاعلية؟! ولنسائل أنفسنا: هل نحن نتصور المدى الذي بلغته حركة المرأة في مجتمعاتنا، والذي يصعب- إن لم يكن مستحيلًا- التراجع عنه إلى زمن لم تكن تخرج فيه المرأة من بيتها إلا قليلًا بل، وهل عدم خروجها من البيت مطلوب أصلًا؟! هل نحن نتصور بدقة تأثير الفنون في واقعنا، لاسيما عند الشباب والناشئة، وهل أعددتنا تصورات صحيحة للتعامل معها أم استسهلنا لغة التحريم، أو في أحسن الأحوال: القول بجواز الدف فقط؟!

هل نحن نمتلك معرفة دقيقة عن حركة المال وكيف تدور مع البنوك؟! وكيف يمكن التخلص من ربوياتها؟! هل استوعبنا ضرورات إشراك الشعوب في تقرير مصائرنا، وتحديد ممثليها، ومراقبة من ينوبون عنها أم ما زال بعضنا يستدعي تجاربٍ ونماذجٍ خلت، كانت تعبيرًا عن بيئتها لا عن وحي السماء وهدى النبوة؟! وصارت كلمات مثل: (الديمقراطية مستوردة، والغرب لا يأتي منه خير) أقرب إلى اللسان منها إلى العقل؟!

إن معرفة الواقع لا تقل أهميةً وضرورةً عن معرفة النصوص وإن تنزيل النصوص على غير واقعها، أو جرّ الواقع إلى غير نوصه؛ لن يحل إشكالية ولن يخفف أزمة، بل سيزيد الفجوة بينهما، وربما يؤثر سلبيًا على النصوص ذاتها عند بعض المتلقين! يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: "إن فقه المجتمع والواقع يوازي فقه النص؛ وبدون فقه المحل ومعرفة الاستطاعات بشكل علمي وموضوعي فسوف تستمر المجازفات، وهدر الطاقات، والعبث بالأحكام الشرعية، والمساهمة السلبية بالإساءة إليها، ولو عن حسن نية فلا يمكن أن يسقى فقيهاً حامل النصوص؛ لأن فقه أبعاد التكليف قسيم فقه النص ومكمل له، فلا فقه لنص بلا فقه لمحلّه فالاتجاه كل الاجتهاد اليوم لا بد أن ينصرف، فيما نرى، إلى محل تنزيل النص ومورده؛ ذلك أن النصوص أصبحت محفوظة وميسور الوصول إليها" (2). وبجانب هذه المعرفة الدقيقة بالواقع، لابد أن نرتب أولوياته ومشكلاته الأكثر إلحاحًا؛ حتى لا نشغل بالمهم عن الأهم، فضلًا عن الانشغال بعديم الجدوى عن المهم والأهم!

وكم حدثت من مشكلات، وضاعت من جهود؛ نتيجة خوض معارك وهمية أو معارك كان يمكن تجنبها والإعراض عنها؛ لعدم فائدتها، أو لقلّة أهميتها بالنظر لقضايا أخرى!

ولذا، نستطيع أن نقول في الختام: إذا أدركنا أننا أمام واقعٍ تعجّر جذريًا، ويتغير باستمرارٍ وإذا عرفنا أن النصوص الشرعية تتفاوت فيما بينها، وأن أحكامها محدودةٌ وإذا اشتبكنا مع واقعنا كما ينبغي، بناءً على المعرفة الدقيقة بمشكلاته، وترتيب قضاياها من حيث الأولوية فإذا أدركنا ذلك كلّه، فسينفتح الباب أمامنا عن عشرات القضايا التي تنتظر فكرًا جديدًا وتعاملًا واعيًّا وسنكون على بصيرةٍ بكيفية تجديد فكرنا فيها، على استقامةٍ وبصيرةٍ وستجنب- حينئذٍ- الدوران في فلكٍ مُعادٍ من القولٍ مكرورًا!!